د. عبدالله عيسى، صورة مملكة غانة في المصادر العربية (البكري والإدريسي نموذجًا)، المجلد الثاني، العدد الثاني، ص٥– ٢٦.

صورة مملكة غانة في المصادر العربية (البكري والإدريسي نموذجًا)

د. عبدالله عيسى•

جامعة الحسن الثاني– المغرب

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على صورة مملكة غانة التاريخية في المصادر العربية (البكري والإدريسي نموذجًا). حاولنا في البداية، الوقوف عند إشكالية الموقع والنشأة لمملكة غانة، وبينا أوجه التوافق والاختلاف بين المصادر والدراسات حول هذه الإشكالية. ثم تطرقنا إلى دراسة أهمية المصادر العربية في كتابة تاريخ إفريقيا بشكل عام، ومملكة غانة بشكل خاص؛ وبعد ذلك، انتقلنا إلى صلب الموضوع وهو: معرفة وتتبع أحوال المملكة من الناحية السياسية، والدينية، والاقتصادية، وذلك من خلال كتابي (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) لصاحبه أبي عبيد البكري، و (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الإدريسي. وأخيرًا أنهينا هذه الدراسة بخاتمة، وتتضمن النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: إفريقيا؛ المصادر العربية؛ مملكة غانة؛ المجتمع.

Kingdom of Ghana in Arabic Sources (Al-Bakri and Al-Idrisi as a Model)

D. Abdullah Issa
Hassan II university- Morocco
iissa34@yahoo.com

Abstract:

This study seeks to shed light on the historical image of the Kingdom of Ghana in the Arabic sources (Al-Bakri and Al-Idrisi as a model). It begins with addressing the problem of the location and emergence of Ghana Kingdom, and analyzing the aspects of compatibility and differences between the sources and studies on this problem, then deals with studying the importance of Arab sources in writing the history of Africa in general, and the Kingdom of Ghana in particular. After that, the study moves to the crux of the topic: Knowing and tracking the kingdom's political, religious, and economic conditions, through the two sources: Al-Mugharab fī Dhikr Afrīqīya wa al-Maghrib of Abū ʿUbayd Al-Bakrī, and Nuzhat al-Mushtāq fī Ikhtrāq al-Afāaq of al-Sharīf Al-Idrīsī.

Keywords: Africa; Arabic sources; Kingdom of Ghana; the society.

مقدمة:

إنَ تاريخ مملكة غانة[١] هو أولى حلقات التاريخ القومي لغرب إفريقيا، فهي أول مملكة قامت ببلاد السودان، وأهم مملكة خلال العصر الوسيط من حيث الصيت والثراء، وقد دل ازدهارها وبقاؤها إلى القرن السابع الهجري (١٣م)، على قدرة أهالي غانة على تدبير شؤونهم بأنفسهم. وهذا ما حمل القلة من الكتاب الغربيين المنصفين على أن تقرر بأن حضارة هذه البلاد في العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض؛ بل فاقت بعض البلاد الأوروبية.

وإذا كنا نجهل الشيء الكثير عن الأصول التاريخية لمملكة غانة، فإنَ المصادر العربية في زمن أبي عبيد البكري، ثم الشريف الإدريسي، استطاعت أن تنتشلها من أعماق التاريخ الغامض والمظلم إلى حيز المضاء؛ الشيء الذي مكننا من معرفة الكثير من التطورات والأحداث التي عرفتها المملكة خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة (١١- ١٢م).

أولاً: الموقع و إشكالية النشأة:

باستقراء ومناقشة المعطيات التي تطرحها مصادرنا العربية والرواية الشفوية، استطاع الدارسون من تحديد الإطار الجغرافي العام لمنطقة "أوكار" -قرب تنبكت الحالية- التي تقوم عليها مملكة غانة[٢]. وقد تم توطين المنطقة فيما بين روافد نهر السنغال غربًا وروافد نهر النيجر شرقًا؛ وعلى حدودها الشمالية كانت تتحرك القبائل البربرية الصحراوية، وفي الفترة التي بلغت فيها مملكة غانة أوج ازدهارها وقوتها خلال القرن ١١م، تمكنت من مد نفوذها جنوبا لكنها لم تلامس قط مقدمة الغابات الاستوائية[٣].

إنها حدود تقريبية لمنطقة أوكار؛ أي مجال انتشار شعب السراكولي حاليًّا، وينبغي الإشارة هنا، أن الحدود السياسية الخاضعة لسلطة الملك الغاني خلال القرن ١١م، كانت دون الحدود الإثنية مساحة. وعلى الرغم من أن الدراسات التاريخية والأركيولوجية لم تهتد بعد بقول حاسم في تحديد موقع عاصمة المملكة، فإنَّ معظمها يجنح نحو مطابقة مدينة غانة العاصمة بمدينة كومبي صالح، التي توجد حاليًّا جنوب شرق موريتانيا[٤].

حقيقة، لا نعرف على وجه الدقة تاريخ نشأة مملكة غانة، ولا مؤسسيها الأوائل؛ غير أن الروايات التاريخية التي أوردها كل من محمود كعت في مصنفه تاريخ الفتاش، وعبد الرحمن السعدي في تاريخ السودان، فضلًا عن الرواية الشفوية المحلية، شكلت منطلقًا لعدد من التأويلات والتصورات، أشهرها تلك التي اقترحها موريس دولافوس (M. Delafosse)، وطورها فيما بعد ريموند موني (R. Mauny).

يعتقد دولافوس أنَّ المؤسسين الأوائل لمملكة غانة، هم بيض من أصل سوري يهودي، نزحوا في منتصف القرن ٢م من ليبيا إلى منطقة أوكار في إطار هجرات سلمية، جاءت نتيجة الاضطهاد الروماني لهم. وبعد استقرارهم بجانب السكان الأصليين قبائل السوننكي[٥]، استطاعوا استيعاب عاداتهم، وتكيفوا مع تقاليدهم، ثم أخذوا تدريجيًّا في بسط نفوذهم إلى أن أصبحوا السادة الحقيقيين للبلاد. وبعد ذلك، تم لهم تأسيس مملكة غانة حوالي سنة ٣٠٠م[٦].

ويستبعد هذا التصور أن يكون الملوك الأوائل لمملكة غانة من أصل صنهاجي، على أساس أنه لو كان الأمر كذلك لأكده لنا عبد الرحمن السعدي باعتباره من أبناء المنطقة. ويضيف دولافوس أن ابن خلدون الذي يعد من أكبر علماء أنساب العرب، لم تكن لتفوته هذه المسألة؛ إذ لو صح انتسابهم لصنهاجة، لسجله لنا في معرض حديثه عن غانة. لكن صاحب العبر، لم يشير إلى القضية واكتفى بنفي ما أثبته الإدريسي، بخصوص انتساب ملوك غانة لعلي بن أبي طالب[٧].

وقد استمرت نظرية دولافوس هذه تمارس تأثيرها على الدراسات التاريخية لعشرات السنين، ثم أخذت تدريجيًّا تفقد أهميتها مع تطور الأبحاث الأركيولوجية؛ كما أن خلفيتها السلبية التي تجعل الفرد الإفريقي عاجزا عن تحقيق أي مكسب حضاري دون تأثير عميق من الخارج، دفع الباحثين إلى تهميشها على اعتبار انتماء مثل هذه النظريات للخطاب التاريخي الاستعماري: فالإفريقي شأن البربري في الكتابات الاستعمارية سلبي، غير أصيل فيما ينتجه، دائمًا في حال انفعال، قاصر عن المبادرة والإبداع[٨].

وتميل معظم الدراسات حاليًّا، إلى رفض مثل هذه الأطروحات، مكتفية بالتأكيد على الأصل السوداني لحكام غانة الأوائل، أو ترديد رأي مؤرخنا محمود كعت في القضية: "وبعد زمانهم ومكانهم علينا ولا يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم/ حوالي عام ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م أن يأتي بصحة شيء في أمورهم يقطع بها، ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه"[٩].

وبعد قرابة نصف قرن من تأليف دولافوس، خرج علينا ريموند موني (R. Mauny) بأطروحة تلقي بعض الإضاءات والمعلومات على نشأة مملكة غانة، لكن من زاوية مغايرة وأكثر شمولية؛ ذلك أنه عوض أن يتساءل عن جنسية ودين ملوك غانة الأوائل، مثلما فعله زميله دولافوس، تساءل عن الأسباب الجوهرية الكامنة وراء نشأة الدول الإفريقية خلال

العصر الوسيط (غانة، ومالي، وسنغاي). وانتهى إلى ما سماه بـ **الأصل العسكري للدولة الإفريقية**[١٠].

وينطلق موني في تصوره من المقولة المشهورة، التي تعد تجاوز الرحل (بربر الصحراء) والمستقرين (السودان)، محكومًا بعلاقة يطبعها العنف؛ فالبربر الرحل -أي صنهاجة الصحراء- حسب زعمه كانوا يغزون باستمرار السودانيين المستقرين على الحافة الجنوبية للصحراء، بهدف استعبادهم والاستيلاء على ثرواتهم. وكجواب على هذا التهديد المستمر، اضطر السودانيون لتنظيم أنفسهم في إطار نظام سياسي قوي، قادر على حمايتهم من غارات وغزوات بربر الصحراء. من ثمة، ظهرت ببلاد السودان، دولا ذات طابع عسكري في جوهرها. وهذه الظاهرة -يضيف موني- تسم بميسمها جميع الوحدات السياسية التي عرفتها بلاد السودان خلال العصر الوسيط، بحيث لا تدوم الدول والإمبراطوريات السودانية إلا بدوام السلطة العسكرية[١١].

حتى لا نناقش غير التاريخ، نسجل بدءًا أن أطروحة موني تستقي جذورها من كتابات دولافوس، والدراسات الأنثروبولوجية، وهذا التأثير، يعني في أحد جوانبه، أنه على الرغم من ادعاء الكثير من الباحثين، تهافت نظريات دولافوس، فإن قلة منهم من يتخذ مساحة حقيقية بينه وبين هيمنة سلطة نظريات دولافوس المتعلقة ببلاد السودان[١٢].

وبإمكاننا، اعتمادًا على التحليل التاريخي، أن ننقض هذه الأطروحة، بيد أننا لن نكلف أنفسنا مثل هذا العناء ما دام الاعتراض المنهجي كافيًا لاستيفاء الغرض. ونعتقد أنَ الثغرة الفادحة التي ترصع تصور مؤرخنا، تتمثل في تحليله بأن السمة العسكرية للدولة الإفريقية، ظاهرة خاصة بالمنطقة المعنية دون غيرها. ولو أظهر موني استعدادًا فطريًّا لا غير، لأدرك أن الظاهرة عامة في تاريخ المجتمعات البشرية، وليست قاصرة على دول بلاد السودان، ولتيقن أيضا أن المسألة في جملتها تتعلق بالأنثروبولوجيا السياسية وليست بعلم التاريخ. ومن ثمة، لا نرى أي داع يدفعه لأن يقدم لنا أطروحته كقضية تاريخية[١٣].

خلاصة القول، إنَ تأسيس مملكة غانة ما تزال مُحاطة بالغموض والتشويش، وكل ما يمكن أن نؤكده بهذا المجال، هو أن أسمها أصبح معروفا في المصادر والشهادات العربية منذ القرن الثامن الميلادي.

ثانيًا: أهمية المصادر العربية في كتابة تاريخ مملكة غانة:

عادة ما نقصد بهذا الاستعمال (المصادر العربية)، كل الشهادات المدونة التي خلفها العرب المسلمون عن المنطقة، ناهيك عن النتف الفارسية أو العبرية وغيرها من الديانات والثقافات، التي استلهمت المعرفة العربية الإسلامية بهذا الشأن. فيمكن اعتبار هذه الشواهد، أهم مصدر لنا عن تاريخ إفريقيا على امتداد ثمانية قرون (من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي)؛ فهي أول ما كُتِبَ عن المنطقة فيما يخص عهد الممالك الكُبرى عند بداية الإسلام بها.

ارتبطت هذه المصادر بعمليات الفتح الإسلامي التي توقفت في المغرب والأندلس. وقام التجار والرحالة يتتبعون الطرق القديمة للتجارة الصحراوية، ليتصلوا بالبقاع الإفريقية بما فيها منطقة الدراسة، في إطار تقليد إسلامي عريق يهتم بالجغرافيا والأوصاف والكشوفات، وذلك لأهداف اقتصادية، وسياسية، وثقافية، ودينية. شكّل هذا الكم الهائل، الأساس والقاعدة المادية، التي انبنت عليها الكتابة أو بالأحرى البحث التاريخي حول مملكة غانة، بحيث لولاها لما كُتِبَ تاريخ المنطقة، ولبقي غارقًا في بحر الظلمات[١٤]. وهذه الظاهرة لا تنسحب على منطقتنا فحسب، وإنما تهم على عدد غير قليل من المناطق الأخرى التي تعرف عليها المسلمون؛ يقول المستعرب الروسي كراتشكوفسكي في معرض تقييمه للأدب الجغرافي العربي خلال العصر الوسط: ((لا يقتصر محيط الأدب الجغرافي العربي على البلاد العربية وحدها، بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التي بلغها العرب، أو التي تجمعت لديهم معلومات عنها، وذلك بنفس الصورة المتنوعة التي وصفوا بها بلاد الإسلام، وقد يحدث أحيانًا أن تمثل المادة الجغرافية العربية إما المصدر الوحيد أو الأهم لتاريخ حقبة معينة لقطر ما))[١٥].

يعود أقدم نص عربي يتحدث عن غانة إلى القرن الثامن الميلادي؛ ويوجد في المعجم الفلكي لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن حبيب الفرزاري، إذ ترد مملكة غانة في إطار حديثه عن ممالك الغرب الإسلامي، وفي ذلك يقول: ((عمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ثمانين فرسخا، عمل إدريس الفاطمي ألف ومئتا فرسخ، عمل غانة بلاد الذهب ألف فرسخ في ثمانين فرسخًا))[١٦].

ويمكننا الاستنتاج من نص هذا الجغرافي؛ أن مملكة غانة بلغت منذ هذا التاريخ أي القرن ٨م، من العظمة والقوة لدرجة أن مساحتها أصبحت تشمل بلاد سنغاي في النيجر

الأوسط، والمناطق الصحراوية والشبه الصحراوية في الشمال الشرقي، وشرق منحنى النيجر. ومما لا شك فيه، أن معرفة الجغرافيين العرب الأوائل بغانة كانت غامضة، بل عجز الكثير منهم عن تحديد جغرافيتها وتسطير حدودها، وأهم ما علق في أذهانهم حولها أنها **بلاد الذهب** بدون منازع، وسوق رائجة له، وإليها تقصد القوافل عبر الواحات شرقا وشمالا. من ذلك مثلا ما كتبه اليعقوبي (٢٥١هـ/ ٨٧٢م) من أنها مملكة عظيمة الشأن توازي مملكة جاو/غاو في القوة والعظمة، توجد بها مناجم الذهب، وتشمل سلطتها ممالك متعددة[١٧]. وفي أواخر القرن العاشر الميلادي، ظهر أبو القاسم محمد ابن حوقل الذي يعتبر كتابه (صورة الأرض) خلاصة لرحلة قام بها المؤلف إلى بلاد السودان. وبالرغم من أن رحالتنا لم تطأ قدماه بلاد غانة، إلا أن وصوله إلى الممالك البربرية المحاذية لها، خصوصًا مملكة أودغشت اللمتونية، مكنه من رسم الخريطة الجيوسياسية لبلاد السودان في زمانه، والتي كانت موزعة بين ثلاثة قوى متوازنة وهي: مملكة غانة الوثنية، ومملكة كوغة، ومملكة أودغشت الصنهاجية.

ومن الرحالة والجغرافيين الذين زاروا مملكة غانة خلال العصر الوسيط، مثل البكري في القرن الحادي عشر الميلادي، والإدريسي القرن الثاني عشر الميلادي؛ وربما ما كتبه البكري عن غانة بصفة خاصة، من أدق وأحسن ما كُتب عنها وعن أحوالها؛ مع أنه لم يزرها بل دون كتابه في قرطبة، حيث كانت وثائق وسجلات حكام الأندلس من بني أمية تحت تصرفه. وهذا فضلا عن الروايات والأخبار المتواترة المشهورة، وهي التي أذاعها التجار والرحالة والمغامرون والحجاج[١٨].

وبخصوص الشهادات الأوروبية، فقد جهلت أوروبا في العصور الوسطى قلب إفريقيا بما فيها مملكة غانة، جهلا تاما، بسبب وعورة الصحراء، وتحكم المسلمين في مسالكها ودروبها، واحتكارهم لعمليات الاتصال ببلاد السودان. ولأسباب دينية وتجارية، مع العلم بأنَ بلاد غانة لم تنقطع صلتها بالعالم الخارجي، ولم تحل الصحراء دون هذا الاتصال؛ غير أنَ معلومات أوروبا عن بلاد السودان بما فيها مملكة غانة، ومحاولة اتصالها بقلب القارة، لم تبدأ بصورة جدية وملحة إلا مع قرب اضمحلال العصور الوسطى[١٩].

ثالثًا: مملكة غانة في عيون أبي عبيد البكري:

يقدم لنا البكري وثيقة تاريخية مهمة تنفرد بالتأريخ لمملكة غانة زمن ازدهارها؛ ومع البكري تنتقل معرفتنا عن غانة من معرفة أسطورية بعيدة المأخذ إلى معرفة تاريخية حقيقية.

ومن خلال البكري أيضًا ترتسم معالم الأسرة السوننكية الحاكمة، وتتضح الخريطة الجيوسياسية لغانة الوثنية في أكبر اتساع بلغته خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي.

١. نبذة عن حياة البكري:

هو أبو عبيد الله ابن عبد العزيز البكري، عاش بقرطبة في عصر أمراء الطوائف، وتوفي سنة ١٠٩٤م؛ وقد أهلته مواهبه الأدبية المتنوعة للعمل كوزير لأمير المرية، وعلى الرغم من أنه لم يغادر الأندلس، فقد ترك لنا مصدرا جغرافيا على غاية من الأهمية: ((المسالك والممالك))؛ والكتاب في عدة أجزاء لم يصلنا منها سوى الجزء الخامس، الذي يحمل عنوان ((كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب)). ونجد فيه لوحة أصيلة عن بداية الحركة المرابطية ومملكة غانة، ومعلومات أخرى متنوعة عن بلاد السودان. ونظرا لأهمية معلومات البكري عن بلاد السودان أو إفريقيا بالمصطلح الحديث، لم يتردد أصحاب مصادرنا اللاحقون عليه في الأخذ عنه، أو حتى انتحال جل ما كتبه عن المنطقة مثلما فعل صاحب الاستبصار[٢٠].

وحسب تصريح البكري نفسه (ص١٧٤)، فإنه فرغ من تحرير مؤلفه عام ١٠٦٨م، لكن يظهر من خلال بعض المؤشرات أنه العام الذي وضع فيه اللمسات الأخيرة لكتابه؛ أما تاريخ التأليف أو التحرير، فيعود حسب محققه إلى ما قبل ١٠٦٢م. وإذ نوافق دوسلان مبدئيًّا فهذا لا يعني أننا مطمئنون إليه كل الاطمئنان[٢١].

بعد أن تعرفنا على حياة ونشأة أبي عبيد الله البكري، وعن ظروف تأليف مصنفه، يبقى السؤال المطروح هنا: كيف وصف لنا جغرافينا واقع حال مملكة غانة من الناحية السياسية، والدينية، والاقتصادية؟ وما هي أبرز التطورات والأحداث التي عاشتها المملكة في عهده؟

٢. الجانب السياسي:

يُحيلنا وصف البكري لعاصمة مملكة غانة على وضعية سياسية مركزية؛ حيث يباشر الملك سلطته انطلاقا من العاصمة كومبي صالح، ويساعده في مهامه عدد من الوزراء والموظفين أغلبهم من المسلمين. وفي واقع الأمر، لا نعرف شيئًا عن التقسيم الإداري للمملكة وكيفية تسيير البلاد، ولكن إذا أخذنا العاصمة كنموذج، يمكننا القول إن الملك كان

يحكم البلاد بمساعدة ولاة ينوبون عنه في تسيير شؤون الأقاليم. وبجانب الوالي، نجد القاضي أو الأمين كما يسمه البكري، وإليه يحتكم أهل غانة في قضاياهم ومختلف مشاكلهم اليومية، وفي إطار التسيير المحلي، لا نستبعد مشاركة الزعامات المحلية في الحياة السياسية، وحتى يضمن الملك ولائها وعدم عصيانها، كان يأخذ أبنائها كرهائن، يقيمون عنده في القصر معززين مكرمين[٢٢].

ويظهر أن علاقة السلطة الحاكمة بالرعية، كانت مدعمة بقيم اجتماعية ثقافية أصيلة، تتمثل أساسًا بالعدل؛ الذي يطبع بشكل متميز سلوك الملك الحاكم تجاه الرعية، يقابله صدق الولاء للملك. وتمتد هيمنة هذه الخلفية الاجتماعية - الثقافية لتشمل مصداقية النظام السياسي، ولتقدم ضمانة لاستمراريته[٢٣]. وينبغي التذكير هنا، أنَ ظاهرة العدل لدى الحُكام السودانيين تجاه رعيتهم، تعتبر من المظاهر التي أثارت انتباه معظم أصحاب المصادر العربية خلال العصر الوسيط؛ من ابن حوقل حتى الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي.

ويرى البكري أن الملك الغاني يجد في قوته العسكرية، وسيلة مادية لتدعيم سلطته في البلاد، وحماية مجال نفوذه؛ إذ يقول: ((ملك غانة إذا احتفل ينتهي جيشه مئتي ألف منهم رماة أزيد من أربعين ألفًا))[٢٤]. ولا يخامرنا شك في أن تقدير عدد الجيش مبالغ فيه، غير أنه إذا جاز لنا مقارنة القوة العسكرية لمملكة غانة، يمكننا القول أنها كانت كافية لاستيفاء الغرض منها؛ خاصة في العاصمة والمراكز التجارية والطرق الرابطة بينهما، والمحطة الجنوبية (غيارو)[٢٥] التي كانت تستقبل الذهب، أما المناطق الهامشية أو القليلة الأهمية اقتصاديا، فلم تكن تهم ملك غانة بنفس القدر[٢٦].

ويتجسد لنا هذا التوجه بوضوح، في السياسة العسكرية لمملكة غانة وهي في عظمة قوتها وعزتها؛ إذ في الوقت الذي نجدها تسيطر على أودغشت بعد سنة ٩٧١م في الشمال، وعلى بعض مناجم الذهب في الجنوب، في نفس الوقت نلاحظ عدم التفاتها للعمليات الجهادية التي كانت تقوم بها مدينة سلي المسلمة على الحدود الغربية[٢٧].

٣. الجانب الديني:

يصف لنا جغرافينا أهالي مملكة غانة بأنهم كانوا غارقين في تقاليد الوثنية[٢٨]؛ بيد أن أن الحضور الإسلامي بالعاصمة وغيرها من مدن المملكة كان يؤشر على تحولات عميقة ستظهر لاحقًا. ومعظم المظاهر التي نوهت بها المصادر العربية، تؤكد لنا أن البلاد كانت

تعيش خلال الثلث الثاني من القرن ١١م، مرحلة انتقالية تمهد لتعميق وترسيخ الإسلام بين أهل غانة[٢٩].

فعلى مستوى السلطة الحاكمة، نجد سلوكًا يعبر بوضوح عن موقفها من الإسلام والمسلمين. وفي هذا الجانب، يقول البكري عن الملك الغاني بسي الذي توفي سنة ١٠٦٣م: ((كان محمود السيرة، محبا للعدل، مرشدا للمسلمين))[٣٠]. أما ابن اخته تنكامين الذي خلفه في الحكم، فقد كان يعتمد بشكل رئيسي على المسلمين في تسيير دواليب الحكم؛ حيث كان يتخذ منهم ترجمانه، وصاحب بيت ماله، وأكثر وزرائه.

وبموازاة مع ذلك، كان ملوك غانة يعفون المسلمين -احترامًا وتقديرًا لهم- من التزام المراسيم التقليدية في التحية والسلام أثناء الاستقبالات الملكية. يقول البكري: ((فإذا دنا أهل دينه منه -أي الملك- جثوا على ركبهم، ونشروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم له، أما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقا باليدين))[٣١].

ولا يختلف سلوك الحكام عن سلوك المجتمع الغاني إزاء الإسلام والمسلمين؛ ويبقى وصف البكري لمدينة غانة العاصمة، نموذجًا وشهادة فريدة على تعايش المسلمين والسودانيين الوثنيين، كما أنه يدلنا على دينامية الفقهاء في نشر الإسلام، ورغبة أهل غانة في التعرف على الدين الحنيف؛ يقول جغرافينا: ((ومدينة غانة مدينتان سهليتان، أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدًا، أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم، ومدينة الملك على ستة أميال من هذه، وتسمى بالغابة. وللملك قصر وقباب، وقد أحاط لذلك كله حائط كالسور، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين، وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم، وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم))[٣٢].

وإذا كانت الظروف قد ساعدت على استقرار المسلمين في العاصمة وغيرها من المدن، فإن مدن ومناطق أخرى، لم تعرف نفس الوضعية؛ بيد أن أهلها الوثنيين كانوا يتطلعون لرؤية المسلمين بين ظهرانيهم. ونلمس ذلك بوضوح من خلال سلوك أهل بلد غرنتيل؛ حيث كانوا يحتفون بالمسلمين، ويكرمونهم، ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم[٣٣].

من خلال ما تقدم، تشدنا مسألتان تستوجبان منَّا الوقوف عندهما: تتعلق الأولى، بالموقف المتراوح ما بين التقاليد الوثنية والإسلام لدى ملوك غانة، في حين تتعلق الثانية

بانحصار تجربة الإسلام في المدن دون الأرياف، ذلك أن المناطق الخارجة عن المراكز الحضرية ظلت بعيدة عن التأثيرات الإسلامية.

بالنسبة للقضية الأولى، فقد وجدنا كيف أن ملوك غانة خلال الثلثين الأولين من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لم يعلنوا عن إسلامهم وظلوا متشبثين ومتمسكين -ظاهريا- بمعتقداتهم الوثنية؛ ومع ذلك وجدناهم يقتحون صدروهم للمسلمين، ويمكنوهم من المناصب السامية في إدارة الدولة، ويسمحون بتشييد المساجد -حتى يتسنى للمسلمين إقامة شعائرهم الدينية بعقلانية وبكل حرية- ويشجعون الفقهاء، وحملة العلم على ممارسة نشاطهم بين السودانيين. ودون أن نقطع في الأمر، فإننا لا نشك في أن المسلمين المتواجدين بالعاصمة أو بالبلاط الملكي، لابد وأنهم قد عرَفوا الملكين الغانيين بسي وتنكامين بالإسلام ودعوهما لاعتناقه[٣٤].

فما الذي حال دون استجابتهما لدعوة المسلمين؟ هل كانا ينتظران من الفقهاء والدعاة أن يهيئوا المجتمع الغاني أولًا، ثم يأتي بعد ذلك إعلانهما عن اعتناق الإسلام؟

حقيقة، لا نستبعد تطور الأحداث في هذا المنحى، كما أن قرائن الأحوال تشجعنا على تبني الطرح البارز في تساؤلنا، ذلك أن عدم إعلان الملك عن اعتناقه للإسلام علانية، سيجنبه الاصطدام بالتقاليد الوثنية، التي تمثل المرجع الشرعي فيما يتمتع به الملك من سلطة مادية ومعنوية، ومحاولة التخلي عن هذه الشرعية، يعني حرمان الملك من المكتسبات التي تخولها له، ومنها حرمان ابن اخته من المُلك. ونعتقد أن الملكين الغانيين بسي وتنكامين قد اعتنقا الإسلام بالفعل، وهذا ما يبرر تعاطفهما مع الإسلام والمسلمين، غير أنهما كانا يخفيان أمرهما. ومثل هذه الحالة تطرق لها جغرافينا البكري في كلامه عن أحد أمراء السودان، وهو قنمر بن بسي، أمير مدينة الوكن؛ إذ قال في حقه: ((إنه مسلم يخفي إسلامه))[٣٥].

ومهما يكن من هذا الأمر، علينا ألا نتغافل دور العامل الزمني في قلب الأفكار والمعتقدات، وأن نقدر ونعد هذا المعطى في معالجة القضية؛ ولا حاجة للتذكير هنا، أننا مازلنا نعيش المرحلة الجنينية الأولى لحضور الإسلام ببلاد السودان. ويجرنا الكلام عن حقيقة إسلام أمير مدينة الوكن، لإثارة المسألة الثانية، المتعلقة بانحسار تجربة الإسلام بالمدن دون الأرياف، وهذه الظاهرة التي يشهد عليها البكري وغيره، تمثل ظاهرة عامة في بلاد السودان، ولا تخص -في حقيقة الأمر- مملكة غانة وحدها[٣٦]. غير أن هذه الملاحظة، لا تعني تعني أن الأرياف كانت أكثر مقاومة للإسلام أو أكثر تشبثًا بمعتقداتها القديمة. وتفسير

هذه المسألة يكمن في الطريقة أو الوسائل التي اتبعها الإسلام للوصول إلى المنطقة؛ حيث التجار وبحكم طبيعة عملهم، فإن أسواق المدن الكبرى كانت أكثر إغراء أو أكثر أمانًا لهم من الأسواق المتوفرة في الأرياف، من ثم نفهم استقرارهم بها، وتأثيرهم على أهاليها، وكذلك بالنسبة للفقيه، فإنه بدون شك سيتبع آثار التاجر، ولن يغامر بنفسه في مناطق لا يعرف عنها شيئًا، لذلك شكلت المدن نقطة انطلاق عمله، ومنها يأخذ في توسيع مجال حركته[٣٧].

وفي أغلب الأحيان، كان هؤلاء الدعاة يتزوجون من أهل البلاد، وبذلك يرحب الأهالي بدخولهم بنظامهم الاجتماعي، فيتوطد نفوذهم وتستقر أحوالهم، وهكذا تزداد مهمة الداعية سهولة، ويستطيع نشر الإسلام بينهم بكل يسر.

٤. الجانب الاقتصادي:

إنَّ سيطرة مملكة غانة على المراكز التجارية ومنها أدوغشت، وبعض مناجم الذهب، جعلها تحتكر أهم السلع المتداولة في التجارة الصحراوية: الذهب والرقيق. وإذا أضفنا مداخيل الرسوم المفروضة على السلع الواردة والصادرة، يصبح بإمكاننا تفهم الأسس التي قام عليها الرخاء المادي للمملكة خلال القرن الخامس الهجري (١١م). ويجد هذا الرخاء ترجمته في وصف البكري للبلاط الملكي؛ حيث كان الذهب يموه كل شيء في القصر، بدءًا من سلاسل الكلاب، وسيوف الغلمان والحرس، إلى ثياب الملك[٣٨]؛ لدرجة أنها صارت تُعرف ببلاد الذهب، وبأن أرضها كلها ذهب، وأصبح ملوك غانة من أغنى ملوك الأرض، وأيسرهم بما يملكون من الأموال والذهب[٣٩].

وبهذه الصيغة تتحدث الشهادات المصدرية، واعتمادًا عليها تنبني الكثير من تصورات الباحثين؛ وهي تصورات مسايرة في مجملها لانطباعات أصحاب مصادرنا. لكن ما قيمة الذهب في بلاد السودان حيث مناجم إنتاجه؟ وهل تداوله بين أهل غانة واستعمالهم له في التجارة الصحراوية يدل على ازدهار اقتصادي اجتماعي؟ ثم ما هي قيمة مصاريف الدولة الغانية؟

إذا نظرنا إلى مملكة غانة من الأندلس خلال القرن الخامس الهجري (١١م)، فإنَ ذهبها -بالشكل الذي يقدمه لنا البكري- سيثير بدون شك لعاب الأندلسيين والتجار المسلمين بصفة عامة؛ وهذا ما قصده جغرافينا بكتابته في الموضوع. في المقابل، كانت تبدو له مملكة غانة كنظام سياسي وكبنية اقتصادية - اجتماعية متواضعة، إلى درجة أنه لم

يجد ما يصفه غير عاصمة المملكة، وقرة جيش الملك، وبعض العادات الدينية والاجتماعية. يمكن القول، إن انشداد وصف البكري للذهب في بلاد غانة، يعكس لنا قيمة هذا المعدن بالنسبة إليه وليس بالنسبة للسودانيين، فهؤلاء كانوا يقايضونه وزنًا بوزن بسلع لا قيمة لها تذكر (مثل الملح) في أسواق العالمين الإسلامي والمسيحي وقتئذ. ويترتب عن ذلك، أن القيمة المرجعية لأية سلعة تدخل أو تخرج من بلاد السودان، لا ترتبط قيمتها بندرتها فحسب، وإنما أساسًا بقدرتها على اجتياز الصحراء؛ وأهل غانة -في حدود معلوماتنا- لم يغامروا باختراقها قط[٤٠]. حقا كانت مملكة غانة تتوفر على ثروات لها أهمية كبرى في التجارة العالمية آنذاك، آنذاك، ونقصد هنا الذهب والرقيق؛ بيد أنها لم تكن تتوفر على التأطير السياسي، والاجتماعي، والثقافي، القادرة على تنمية وتطوير ثروة البلاد، أو على الأقل الضمان بتحقيق استفادة مناسبة لقيمة سلعها[٤١].

وعلينا ألا ننخدع بالصورة التي يرسمها كل من ابن حوقل والبكري عن ملك غانة وبلاطه، ولا بنتائج التحليلات التي توحي بأننا أمام مملكة محكمة التنظيم، وغارقة بالثروات. وإذا كانت المصادر تتحدث عن تلك الثروات والكميات الكبيرة من الذهب المتوفرة لدى الملك؛ فإن ادخارها في خزينته، يؤكد أن الدولة الغانية لم تكن تتحمل مصاريف مرهقة إزاء الإدارة والجيش.

وبموازاة مع ذلك، لا نجد أثرًا لفئات سودانية تجارية مغامرة، والمراكز الحضارية قليلة وعاجزة عن احتواء ومواكبة التطورات الهامة، التي كانت تعرفها التجارة الصحراوية خلال القرنين ١٠- ١١م. وعقلية المجتمع في معظم أبعادها ما تزال تحكمها تقاليد عتيقة[٤٢].

وقد كان حكام غانة، بحكم احتكاكهم بتجار وفقهاء بلاد المغرب، واعين بحساسية الموقف، من ثمة نفهم محاولاتهم المستمرة للاستعانة بتجربة التجار والفقهاء المسلمين في تسيير شؤون البلاد[٤٣].

خلاصة القول، من خلال ما سبق ذكره نعتقد إنَّ ما يصطلح على تسميته بمملكة غانة في عهد البكري، لا يحيلنا على نظام سياسي، وهياكل إدارية واقتصادية محكمة التنظيم، ونسيج حضري كثيف، بقدر ما يحيلنا على تجربة مجموعة من القبائل السودانية، حاولت مستعينة بالإسلام ورجاله أن تطور نفسها، وتؤسس نظامًا سياسيًّا أكثر تطورًا.

رابعًا: مملكة غانة كما وصفها لنا الإدريسي[٤٤]:

نبذة عن حياة الشريف الإدريسي: هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الإدريسي، ولد بسبتة عام ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، وفي سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م استقدمه روجر الثاني ملك صقلية، فأنجز في ظل رعايته "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق". ويسود الاعتقاد عند مؤرخي الجغرافيا، أن "النزهة" ما هي إلا شرح وتعليق على الخرائط التي وصفها الإدريسي لولي نعمته. وقد انتهى جغرافينا من عمله هذا سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م، وذلك بعد ١٥ سنة من البحث. ويحفل القسم الخاص بوصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، وهو الذي يهمنا من النزهة بمعلومات فريدة عن الصحراء وكيفية اجتياز القوافل لها، كما يتضمن إشارات تاريخية وإثنوغرافية مهمة عن بلاد السودان. وليس هناك اتفاق حول مكان وفاة الإدريسي وتاريخها، والمرجح أن وفاته كانت بعد بضع سنوات من عام ٥٦٠هـ/١١٦٤م[٤٥].

فكيف جاء وصف الإدريسي حول مملكة غانة؟ وما هي أبرز التحولات التي شهدتها المملكة خلال هذه الفترة؟

تؤكد كثير من الدراسات والأبحاث التاريخية[٤٦]، أن مملكة غانة التي وصفها البكري قد انهارت كوحدة سياسية بعد الغزو المرابطي لعاصمتها سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م. ومن جانبنا، فلن نأخذ بهذا الكلام، لأننا نعتقد أن مملكة غانة كوحدة سياسية، قد استمرت في الحياة بنفس الوتيرة والقوة التي عرفتها في عهد البكري[٤٧]. حقيقة، خرجت مدينة أودغشت عن سلطة مملكة غانة بعد ما غزاها المرابطون سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٥م، وربما -كذلك- تقلصت الحدود الغربية للمملكة نتيجة توسع سلطنة التكرور[٤٨].

لكن في المقابل، علينا أن نسجل امتداد الحدود الشرقية لمملكة غانة، فقد تركها البكري على بعد ثلاثة أيام من العاصمة، بيد أنه مع الإدريسي في منتصف القرن ٦هـ/ ١٢م، أصبحت تمتد لمسافة ستة أيام منها[٤٩]. وهذا التغيير في الخريطة السياسية لمملكة غانة فيما بين عهدي البكري والإدريسي؛ يعكس لنا التحولات العميقة التي كانت تعرفها اتجاهات محاور التجارة الصحراوية. ذلك أن المحور الغربي والذي يمر بأودغشت أخذ يفقد أهميته لصالح المحور الأوسط الذي يمر بتغازة؛ نتيجة تنامي مملحة تغازة، ونتيجة تغيير جالة لطريق ملح أوليل في اتجاه بلاد السودان؛ إذ أصبحت القبيلة الصنهاجية تصرفه عبر نهر السنغال، وليس عبر أودغشت[٥٠].

ولعل في تطور علاقة مملكة غانة التجارية مع أهل وارجلان، ما يترجم بوضوح هذه التغيرات في المحاور التجارية الصحراوية؛ كما أنه يؤشر على سياسة غانة التوسعية في اتجاه الحوض الأوسط لنهر النيجر. وفي هذا الإطار، فإن خلاصة دوفيس (J. Devisse)، حول الأسباب الحقيقية للانهيار التجاري لمدينة أودغشت، تبدو مقنعة إلى حد كبير. ذلك أنه يعزوها إلى تحول اتجاه التجارة الصحراوية عنها، وليس إلى واقعة الغزو المرابطي لها[٥١].

وباندحار الدور التجاري لمدينة أودغشت، لم تعد المدينة تمارس إغراءً بالنسبة لمملكة غانة، لهذا السبب لم تلتفت إليها حتى بعد أن خمدي التحركات العسكرية المرابطية في الصحراء سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٨م[٥٢]. وربما لنفس السبب (تحول أهمية المحاور التجارية نحو الشرق)، وجدت مملكة غانة نفسها مندفعة نحو الشرق، مديرة بذلك ظهرها للمناطق الغربية، الشيء الذي سهل تنامي وتطور القوة السياسية لسلطنة التكرور.

هكذا، نلاحظ أن ما فقدته مملكة غانة في الشمال والغرب عوضته في الشرق؛ أما الحدود الجنوبية فقد ظلت على ما كانت عليه في عهد البكري، ولم تتمكن سلطنة التكرور من زحزحتها؛ حيث كانت مدينة غيارو القريبة من مناجم الذهب، آخر نقطة في حدودها الجنوبية[٥٣].

أما عن المستوى الحضاري فقد تطورت المملكة كثيرًا فيما بين عهدي البكري والإدريسي. فكما لاحظنا سابقا كانت مدينة تادمكة أحسن بناءً من غانة العاصمة، بيد أننا حينما نعود لهذه الأخيرة مع وصف الإدريسي، نجدها قد أصبحت من أكبر مدن بلاد السودان قطرًا وأكثرها خلقًا وأوسعها متجرًا، وإليها يقصد التجار المياسير[٥٤]. الشيء الذي يبرهن لنا على التطور الكبير الذي عرفته غانة العاصمة فيما بين منتصف القرن الخامس، ومنتصف القرن السادس للهجرة (١١- ١٢م). وبموازاة مع ذلك، تطورت مدن المملكة الأخرى؛ مثل مدينة تيرقي، وظهرت مراكز جديدة مثل ولاتة.

وامتدت هذه التحولات لتشمل **الجانب الديني**، فبعد أن تركنا البكري أمام لوحة تمثل أهل مملكة غانة، وملوكهم وهم غارقون في الوثنية، وأهل العاصمة وهم منقسمون على أنفسهم بين الوثنية والإسلام؛ أصبح الجميع في عهد الإدريسي يعتنق الإسلام، يقول الباحث عصمت دندش في هذا المجال: ((ونتج عن امتزاج التقاليد الإسلامية التي نقلها المرابطون بالتقاليد السودانية المحلية، أن ظهرت تقاليد إسلامية إفريقية؛ فنرى في حياة الملوك والرعية المظاهر العربية والإسلامية. فقد كان الملك الغاني يخرج لتفقد رعيته مرتين في اليوم، فإن

هذا يدل على شيء فإنما يدل على عدله، وخشيته من وقوع الظلم على أحد، أو عدم وصول شكوى مظلوم ضعيف إليه. وبلغ من تأثر ملوك غانة بالحضارة الإسلامية، أن حاولت الأسر الحاكمة أن تدعي الانتساب إلى الأصول العربية، ومنها آل البيت والخلافة العباسية))[٥٥].

كما يخبرنا الإدريسي عن إدعاء ملوك غانة نسبهم إلى البيت العلوي؛ إذ يقول: ((وأهلها -أي أهل غانة- مسلمون، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو يخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي))[٥٦].

وإعلان الملك الغاني عن تبعيته للخلافة العباسية، لا يعني أنه كان يبحث عن مسوغ شرعي يدعم موقفه أمام شعب الصوصو الوثني؛ ذلك ان شعب الصوصو وقتئذ لم يكن يعرف الإسلام، أو بالأحرى يميز بين طبقاته. وأن يكون الملك الغاني تابعًا للخلافة العباسية أو الموحدية، فإن ذلك لا يعني شيئًا بالنسبة لشعب وثني. والدليل على ما نذهب إليه، أن تلك التبعية المنوه بها، لم تمنع الصوصو من الهجوم على غانة واستعباد أهلها فيما بعد. ونعتقد أن المسألة ينبغي النظر إليها في إطار التنافس الديني خلال القرن ١٢م فيما بين غانة وسلطنة التكرور المسلمين.

إن الشيء الأكيد من خلال المعطيات الدينية التي يطرحها الإدريسي عن مملكة غانة، هو أن الإسلام قد تعمق وترسخ بين الأهالي والطبقة الحاكمة أكثر من ذي قبل؛ إذ أصبح يمثل المرجع الأساسي في حياتهم، وهذا ما يفسر لنا تعلق ملك غانة بآل البيت والخلافة العباسية، كما يفسر أمير التكرور لقب السلطان.

ورواية الجغرافي الزهري بهذا الصدد، تملك الكثير من المصداقية، لأنها تساير وتدعم أقوال الإدريسي، وتكشف لنا عن مدى تشبع أهل مملكة غانة بالتعاليم الإسلامية، يقول جغرافينا: ((وهم اليوم {منتصف القرن ٦هـ/١٢م} مسلمون وعندهم العلماء، والفقهاء والقُراء، وسادوا في ذلك وأتى منهم إلى بلاد الأندلس رؤساء من أكابرهم، وساروا إلى مكة وحجوا وزاروا، وانصرفوا إلى بلادهم، وأنفقوا أموالا كثيرة في الجهاد))[٥٧].

لقد عاشت مملكة غانة بعد الإدريسي عدة عقود، وربما امتد عمرها حتى مطلع القرن السابع الهجري (١٣م)، حيث انهارت واضمحلت كوحدة سياسية هامة في بلاد السودان، وذلك على إثر هجوم شعب الصوصو عليها[٥٨]. وبذلك اختفت المملكة نهائيًّا وتركت المجال مفتوحًا لبروز قوة إسلامية جديدة: **إمبراطورية مالي**. وعلى الرغم من انهيار الحكم الغاني في بلاد السودان، فقد ظل إقليم غانة في عهد مملكة مالي (١٢٣٠ -

١٤٣٠م)، يتمتع بنوع من الاستقلال النسبي عن نياني العاصمة؛ كما أن حاكم الاقليم كان يحظى بتقدير خاص لدى البلاط المالي؛ مما يفسر احتفاظه بلقب (ملك) دون غيره من حكام أقاليم المملكة[٥٩].

الخاتمة:

لقد تأكد لنا من خلال بحثنا هذا، أنَّ كتاب جغرافينا أبي عبيد البكري يعد من أهم المصادر والمصنفات التاريخية التي تتحدث عن مملكة غانة، خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري (١١م). وإذا جاز لنا أن نختزل وصفه لأحوال المملكة؛ فيمكننا أن نتوقف عند نقطتين أساسيتين: أولهما، أنَ مملكة غانة خلال الفترة المعنية، كانت مهابة الجانب بفعل قوتها العسكرية؛ التي بلغ قوامها مئتي ألف رجل. ثانيهما، أن المملكة كانت متخلفة حضريًّا وحضاريًّا، وأنَ معظم أهل غانة ما يزالون وثنيين يعبدون الأصنام، غير أن البكري وهو يحيلنا على هذه الوضعية العامة، لم يفتهُ تسجيل ذلك الحضور الجنيني للإسلام، خاصة في غانة العاصمة. وجل المعطيات التي طرحها بهذا الصدد، تدفعنا للاقتناع بأن البلاد وقتئذ، كانت تتهيأ لتحقيق طفرة حقيقية فيما يخص ترسيخ الدعوة الإسلامية بين ظهراني أهالي مملكة غانة.

وبعد حوالي قرن من الزمان من وصف البكري، جاءت شهادات جغرافينا الشريف الإدريسي لتطلعنا على ما استجد في أحوال المملكة. وأهم ما شدنا -كما رأينا- في أقوال صاحب النزهة، هو تأكيده الصريح على استقلالية مملكة غانة كوحدة سياسية، وتوسع حدودها الشرقية على حساب حدودها الغربية، وإلماحه إلى احتفاظ غانة بنفس القوة العسكرية التي كانت لها أيام جغرافينا البكري.

وفيما يخص الجانب الديني، جاءت أقوال الإدريسي لتثمن ما خمناَه سابقا مع البكري؛ حيث أصبح جل الأهالي -حكامًا ورعيةً- يعتنقون الإسلام؛ وقد وجد هذا التحول ترجمته العميقة، في رغبة ملك غانة في الانتماء لآل البيت، وإعلانه عن تبعيته للخلافة العباسية. وباستقراء روايات جغرافينا عن غانة، نلاحظ أنها لا تشير بتاتًا إلى واقعة الغزو المرابطي، ومما لا شك فيه أن تجاهل الإدريسي لهذا الأمر، جعل المعتقدين في صحة الرأي الشائع في وضع لا يحسدون عليه؛ لذلك وجدوا أنفسهم مدفوعين لاتخاذ موقف صارم من رواياته. فالمملكة -كما نعلم- استمرت في الوجود إلى أن تم الإجهاض عليها إثر هجوم شعب الصوصو عليها؛ ففتحت المجال لظهور كيان سياسي جديد ذات صبغة إسلامية، ألا وهي مملكة مالي، الذي سيصبح فيها الإسلام مرجعية أساسية للمجتمع المالي.

حواشي البحث

- باحث في الدراسات الإفريقية، حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة الحسن الثاني، المغرب عام ٢٠١٥م.

(١) نود أن نلفت انتباه القارئ هنا، أن **مملكة غانة** التي نتحدث عنها في ثنايا هذا البحث ليست هي **غانا** الحالية التي تقع في أقصى الجنوب من غرب إفريقيا، وعاصمتها أكرا، والتي تبعد عنها بآلاف الكيلومترات، بعد فاس عن بن، غازي مثلا.

(٢) ترجع أول إشارة في المصادر العربية إلى النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (٨م)، حيث أشار إليها الفلكي الفزاري، ثم تلاحقت بعد ذلك الشهادات المصدرية العربية لكنها كانت فقيرة في مضمونها. ولن نتمكن من التعرف على غانة إلا مع البكري وهو يرسم مسالكه وممالكه سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م. وأول ما يوضحه لنا جغرافينا، هو أن اسم غانة يطلق على عاصمة المملكة، كما انه يمثل لقبا للملك، وأن اسم البلاد أوكار. وفي محاولة لتفسير مصطلح غانة في لغة الماندينغ: (**الرجل القوي الذي يتمتع بقدرات خارقة**). انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، (بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٧٩)، الجزء الثاني، ص٣٧٧. أبي عبيد البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، (باريس: ميزونوف، ١٩٦٥)، حققه وترجمه للفرنسية دوسلان، ص١٨٤.

(٣) أحمد الشكري، **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**، (الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ١٩٩٧)، ص١٠.

(٤) محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، (أنجي: بريدن، ١٩١٣)، حققه هوداس ودولافوس، ص٤٢.

(٥) يعتقد مؤرخا تنبكت محمود كعت وعبد الرحمن السعدي، أن ملوك غانة الأوائل هم بيضان في الأصل. انظر: **تاريخ الفتاش**، ص٤٢. عبدالرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، (أنجي: بريدن، ١٨٩٨)، حققه وترجمه للفرنسية، هوداس وبنوة، ص٩. وبلغ عدد ملوك هذه الأسرة ٤٤ ملكا؛ ٢٢ قبل بعثة النبي عليه السلام، و٢٢ بعد البعثة. انظر: **تاريخ الفتاش**، ص٤٢، **تاريخ السودان**، ص٩٥.

(٦) Delafosse M, Haut Sénégal – Niger, 1972, Paris ; Maisonneuve et Larose, Vol 3, p.24.

(٧) ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥١)، المجلد الخامس، ص٩٣١. أبو عبدالله الحسن الإدريسي، **أنس المهج وروض الفرج: قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان**، تحقيق الواحي النوحي، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٧)، ص٦.

(٨) **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**، ص١٣.

(٩) **تاريخ الفتاش**، ص٤٢.

(١٠) Mauny R, 1961, Tableau Géographique de l'Ouest Africain au Moyen-âge.Mem, de l'IFAN.B. No 61, Dakar, p.505.

(١١) Ibid, p.506.

(١٢) **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**، ص١٦.

(١٣) **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**، ص١٧.

(١٤) عبدالله عيسى، **الإسلام وبدايات التدخل الأوروبي في غرب إفريقيا مابين القرنين ١٥ و١٧م**، (القاهرة: المكتب العربي للمعارف)، ص١٣.

(١٥) أغناطيوس يوليانوفتش، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧)، ص١٩.

(١٦) يوجد نص الفزاري بين دفتي كتاب **(مروج الذهب)** للمسعودي القرن ١٠م، ط١٨٦٧، ص٣٩.

(١٧) أبو العباس أحمد اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، (بيروت: دار صادر، دون تاريخ)، ص١٩٤، ١٩٤.

(١٨) إبراهيم طرخان، **إمبراطورية غانة الإسلامية**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والكتاب، ١٩٩٨)، ص١٠.

(١٩) **إمبراطورية غانة الإسلامية**، ص١٢.

(٢٠) مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، (الدار البيضاء: دار النشر المغربية)، ص٥٤.

(٢١) أحمد الشكري، **الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م**، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٩)، ص٢٦.

(٢٢) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٨٦.

(٢٣) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٤.

(٢٤) **المصدر نفسه**، ص١٧٧.

(٢٥) **غيارو**: تبعد عن العاصمة غانة مسيرة ١٨ يومًا.

(٢٦) **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**، ص٢٣.

(٢٧) اعتنق اهل مدينة سلي الإسلام حوالي سنة ١٠٣٩م، وقد تم ذلك بفضل دعوة رئيس التكرور وقتئذ، ورجابي بن رابيس، ويظهر أن المدينة آنذاك كانت خاضعة لإمارة التكرور، أو متحالفة معها على أقل تقدير، وبعد حوالي قرن من الزمان من ذلك، أصبحت مدينة سلي من عمالة السلطان التكروري. وتدلنا المادة المصدرية المتوفرة، أنه فيما بين منتصف القرن ١١م ومنتصف القرن ١٢م، كانت إمارة التكرور المسلمة تعمل على نشر الإسلام في المناطق الغربية لمملكة غانة، سواء عن طريق الدعوة الإسلامية، أو باعتماد الجهاد إذا استلزم الأمر ذلك. ويبدو أن هذه العمليات الجهادية لم تكن نقلق حُكام مملكة غانة. انظر: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٢؛ **أنس المهج وروض الفرج**، ص٣.

(٢٨) لمعرفة أكثر حول الحالة الدينية لمملكة غانة قبل الإسلام، يمكن الرجوع إلى الدراسة التي قمنا بها حول ذلك وعنوانها: الأرواحية عند مجتمع إفريقيا الغربية: السمات والخواص، دورية كان التاريخية، عدد ٢٩، سبتمبر، ٢٠١٥، ص١١٢ - ١١٦.

(٢٩) ابن سعيد المغربي، **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**، (تطوان: معهد مولاي الحسن، ١٩٥٨)، ص٢٦.

(٣٠) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٥.

(٣١) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٦. وجغرافينا لا يميز لنا ما إذا كان هؤلاء المسلمين من السودان اصلا أو من البيضان (العرب أو البربر).

(٣٢) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٥٢.

(٣٣) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٧. أحمد بن علي القلقشندى، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، (القاهرة: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٥)، الجزء الخامس، ص٢٨٤.

(٣٤) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٨.

(٣٥) **المصدر نفسه**، ص١٧٩.

(٣٦) نفس الحالة عرفتها إمارة كوكو وملل والتكرور. انظر: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٢، ١٧٨، ١٨٣.

(٣٧) نجد عند الدمشقي تصورا يساير الصيغة التي قدمنا بها كيفية انتشار الإسلام في المدن ومنها إلى الأرياف. انظر: شمس الدين الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، تحقيق غسان الناصير، (دمشق: دار العراب، ٢٠١٣)، ص٢٦٨.

(٣٨) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٦.

(٣٩) ابن حوقل، **صورة الأرض**، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩)، ص٩٨.

(٤٠) انظر كلام ابن خلدون عن أرباح التجارة البعيدة المدى، وقد ضرب لنا مثلًا بالتجارة الصحراوية بين بلاد المغرب وبلاد السودان. **العبر**، المجلد١، ص٧٠٧.

(٤١) **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**، ص٢٩.

(٤٢) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٣. **تاريخ الفتاش**، ص٤٢.

(٤٣) **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**، ص٣٠.

(٤٤) يعتقد الباحث مونتيل أن مملكة غانة التي وصفها البكري ليست هي نفسها التي انتهت إلى الإدريسي، ونرى أن لا داعي لمثل هذه الشكوك المغالية؛ ذلك أن مقارنة المعطيات التي يطرحها الجغرافيان، تؤكد بوضوح انهما يتحدثان عن نفس الوحدة السياسية. انظر: Monteil V, L'Islam Noir, Paris, Le Scuil 3e ed , 1974, p. 84.

(٤٥) **الإسلام والمجتمع السوداني**، ص٢٧.

(٤٦) نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: إبراهيم القادري بوتشيشن، **المغرب والأندلس في عهد المرابطين**، (بيروت: دار الطليعة للنشر والطباعة ١٩٩٣).

(٤٧) كان من نتائج الاعتقاد في واقعة الغزو المرابطي، أن ضاع تاريخ مملكة غانة كما ضاع تاريخ سلطنة التكرور، ولم يعد أحد يتحدث عنها أو يلتفت إليها بعد القرن ٥هـ/١١م، أي بعد شهادات البكري.

(٤٨) توجد **إمارة التكرور** على الضفة اليسرى لنهر السنغال، وهي بذلك تقابل على الضفة اليمنى مجال

انتشار قبيلة جدالة الصنهاجية، اعتنق أهل التكرور الإسلام منذ بداية القرن ٥هـ/ ١١م؛ أي قبل قيام الحركة المرابطية. ومن ذاك وهم يعملون بدورهم على نشر الإسلام، وتوسيع مجال نفوذهم جنوبًا وشرقًا. وفي عهد الإدريسي، أصبحت الإمارة عبارة عن سلطنة إسلامية على غاية في الأهمية في بلاد السودان؛ حيث تمكنت من بسط نفوذها على بعض المناطق والمدن التابعة لمملكة غانة، مثل: بسي وسلي. وكان طبيعيا أن تصطدم هذه التطلعات والطموحات السياسية التكرورية بسلطة غانة؛ غير أن انشغال حكام غانة بالمناطق الشرقية - التي محورها الثنية الأولى لنهر النيجر - جعلهم يغضون العين عن التحركات التكرورية. انظر: **أنس المهج وروض الفرج**، ص٨.

(٤٩) **أنس المهج وروض الفرج**، ص٢.

(٥٠) **أنس المهج وروض الفرج**، ص٢.

(٥١) **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**، ص٣٢.

(٥٢) هناك إشارة غامضة وردت عند الإدريسي (ص٣٢)، توحي بأن مملكة غانة قد استردت أدوغشت بعد الغزو المرابطي المزعوم. لكن ماذا ستفعل بها بعد تحول المحاور التجارية عنها؟

(٥٣) **أنس المهج وروض الفرج**، ص٤. **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٦.

(٥٤) **أنس المهج وروض الفرج**، ص٦.

(٥٥) **أنس المهج وروض الفرج**، ص٦.

(٥٦) **أنس المهج وروض الفرج**، ص٧.

(٥٧) الزهري، **كتاب الجغرافية**، (الإسكندرية: مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ)، تحقيق محد حاج صادق، ص١٢٥.

(٥٨) في محاولة لتحديد تاريخ هجوم الصوصو على مملكة غانة، يذكر دولافوس أن الحدث وقع سنة ١٢٠٣م، غير أنه لا يُعرفنا بالمصدر الذي اعتمده في هذا التحديد. حقًا أشار ابن خلدون (العبر، الجزء ٦، ص٤٣١) لهجوم الصوصو على غانة، لكنه لم يُعين لنا تاريخًا محددًا. انظر: Delafosse, Haut – Sénégal- Niger, T. 2, p.56.

(٥٩) **الإسلام والمجتمع السوداني**، ص١١٨.